ولم يكن لعبدالله بن عيَّاش ولا لعمر - رضي الله عنهما - أن يزيدا شيئاً عمَّا قالا، ولذلك قال عمر في ختام ما قيل: «لا أَقُولُ فِي بَيْتِ اللَّهِ ولا فِي حَرَمِهِ شَيْئًا» ثُمَّ انصرف.

*****

فإنك بأعيننا:

تذكرتُ - وأنا أطوي ما بين يدي من مراجع عن مدينة رسول الله ﷺ وقد عشت في رحابها ما شاء الله لي أن أعيش - تذكرتُ حمى الله ورعايتَه لنبيه ﷺ في مكة والمدينة، ورأيتُ أن نتذاكر فضلَ الله على رسوله منذ نشأته ورعايته، وحفظَه في جميع مراحله، وذلك من خلال قول الله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ**﴾(١) وهي سورة مكيِّة.

وقد وُفِّقَ ابن عاشور في تفسيره [التحرير والتنوير] في التعليق على هذه الآية حيث قال:

«ولك أن تجعل الجَمْع باعتبار تعدُّد متعلقات الملاحظة، فملاحظةٌ للذبّ عنه، وملاحظةٌ لتوجيه الثواب ورَفْع الدرجة، وملاحظةٌ لجزاء أعدائه بما يستحقونه، وملاحظةٌ لنَصْره عليهم بعُموم الإيمان به.

وهذا الجمع على نحو قوله تعالى في قصة نوح: ﴿**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ**﴾(٢) لأنَّ عناية الله بأهل السفينة تتعلق بإجرائها، وتجنيب الغرق عنها، وسلامة ركابها، واختيار الوقت لإرسائها، وسلامة الركاب في هبوطهم.

وذلك خلاف قوله تعالى في قصة موسى: ﴿**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾(٣) فإنه تعلَّق واحد بمشى أخته إلى آل فرعون وقولها: ﴿**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ**﴾(٤)» (٥).

---

(١) الطور: ٤٨ . (٢) القمر: ١٤ . (٣) طه: ٣٩ .
(٤) طه: ٤٠ . (٥) التحرير والتنوير: ج٢٧ ص٨٤.

ويقول ابنُ عطية الأندلسى في [المحرر الوجيز] :

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ معناه: بإدراكنا وأعيُن حفْظِنا لك وحيطتنا.

ثم قال: وهذه الآية ينبغى أن يُقَدِّرَها كُلُّ مؤمن في نفسه؛ فإنها تُفسح مضايقَ الدنيا.

أمَّا صاحب الظِّلال فإنني أراه قد وَقَفَ مبهوراً عند قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ حيث قال:

«ويا لَهُ من تعبير! ويا لَهُ من تصوير! ويا لَهُ من تقدير! إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان. هذه المرتبة التي يصوّرها هذا التعبير الفريد في القرآن كُلِّه، حتى بين التعبيرات المُشابهة.

لقد قيل لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾(١).

وقيل له: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾(٢).

وقيل له: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(٣).

وكُلُّها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة، ولكنه قيل لمحمد ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ وهو تعبير فيه إعزازٌ خاص، وأُنْسٌ خاص، وهو يلقى ظلاً فريداً أَرَقّ وأشَفّ من كُلِّ ظلٍّ.

ولا يملك التعبير البشرى أن يُترجم هذا التعبير الخاص، فحسبنا أن نُشير إلى ظلاله، وأن نعيش في هذا الظلال»(٤).

*****

(١) طه: ١٣.
(٢) طه: ٣٩.
(٣) طه: ٤١.
(٤) في ظلال القرآن: مج٧، ج٢٦، ص٤٨.

أحببت أن نعيش مع قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فتذكرت تنشأته ورضاعه، وما كان في ذلك من إيواء وتكريم من الله للوليد اليتيم.

ووجدتنى مع مولد المصطفى ﷺ ومَسقط رأسه ومنشئة في مكة، حين قدمت حليمةُ السعدية مع قومها يلتمسون الرُّضَعَاءَ في مكة؛ لَمَا يرجونه من المعروف من أهليهم، وكان أهل مكة يسترضعون أولادهم فيهم لفصاحتهم، ولصحة هواء البادية.

فأقام بينهم ﷺ نحو خمس سنين، وظهر لهم من يُمْنه وبركته - في تلك المُدَّة - أنواعٌ من المعجزات وخوارق العادات.

روى ابن إسحاق عن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب - رضي الله عنهما - قال: قالت حليمةُ:

خرجتُ في نسوةٍ من بنى سعد، نلتمس الرُّضَعَاءَ على أتَانٍ قمراءَ في سنةٍ شهباء[1] ومعي زوجي الحارثُ بن عبدالعُزى من بنى سعد بن بكر ومعنا شارفٌ لنا ما تبضُّ بقطرة، وما ننام ليلَنا أجمع من بكاء صبينا، ما في ثدييَّ ما يُغنيه، ولا في شارفنا ما يُغذِّيه.

فخرجت على أتانى تلك، ولقد أذَمَّتْ بالركب ضعفاً وعجفاً، حتى شقَّ ذلك عليهم، حتى قدمنا مكة نلتمس الرُّضَعَاءَ، فوالله ما منَّا امرأةٌ - وقد عرض عليها رسولُ الله - فتأباهُ إذا قيل لها: إنه يتيم؛ وذلك أنَّا إنَّما كنا نرجو المعروف من أبى الصبي، فكنَّا نقول: يتيمٌ! وما عسى أن تصنع أمُّه وجدُّه؟ فكنا نكرهه لذلك.

فما بقيت امرأةٌ قدمَتْ معي إلاَّ أخذت رضيعاً غيري، فلمَّا أجمعنا الانطلاق، قلت لصاحبى: إنى والله لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه.

---

(١) شهباء: أي ذات قحط وجدب.

قال: لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملنى على أخْذه إلاَّ أنى لم أجد غيره

قالت: فلمَّا أخذتُه رجعت به إلى رحلى، فلمَّا وضعتُه في حجرى أقبل عليه ثدياى - بما شاء - من اللبن، فشربَ حتى رَوِى، وشرب معه أخوه حتى رَوَيا، ثُمَّ ناما وما كنَّا ننام معه قبل ذلك.

وقام زوجى إلى شارفنا تلك، فإذا بها حافلٌ، فحلب منها ما شرب وشربتُ، حتى انتهينا ريّاً وشبَعاً، فبِتْنَا بخير ليلة.

قالت: يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمين يا حليمة، والله إنى لأراك قد أخذت نَسَمَةً مبارَكة.. ألم ترى إلى ما بتْنَا فيه من الخير والبركة؟

قالت: ثُمَّ خرجنا وركبتُ أتاني تلك، وحملته عليها معى، فوالله لَقَطَعَت بالركب ما يقدر عليها شئٌ من حُمُرهم، حتى إنَّ صواحبى ليقُلنَّ لى: يابنت أبى ذؤيب، ويْحَك! أربعى علينا[1] أليست هذه أتانك التى كنتِ خرجت عليها؟ فاقول لهنَّ: بلى والله، إنها لهى هى. فيقلن: إنَّ لَهَأ لشَأناً.

قالت: ثُمَّ قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى ترُوح علىَّ - حين قدمنا به معنا - شباعا لبنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسانٌ غيرنا منهم قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعاتهم: ويْحَكُم، اسرحوا حيث تسرح غنمُ بنت أبى لؤى. فيسرحون.

فتروح أغنامُهم جياعاً هُزّلاً ما تبضُّ بقطرة لبن، وتَرُوح غنمى شباعاً لبناً.

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والبركة، حتى مضت سنتاه، ففصلتهُ عن الرضاعة.

---

(١) أربعى علينا: أى أقيمى وانتظرى وارفقى.

وقالت: وكنت لا أدخل عليه الليل إلاَّ ووجدت السقف قد انفرج، وقد نزل عليه القمر يناغيه أى: يُحدِّثه، وكان «يَشِبُّ شباباً لا يَشِبُّه الغلمان. فما بلغ سنتين حتى كان غلاماً جَفْراً»(١).

قالت: فقدمنا به على أُمِّه، ونحن أحرص شئ على مُكْثه فينا لمَا كنَّا نتعرف من بركته.

فقلت لأُمِّه: دعينا نرجع به، فإنَّا نخشى عليه وباءَ مكة، ولم نزل بها حتى ردَّته معنا.

*****

وبعد حَوْلين من مرجعهما به، أىْ في العام الخامس من مولده ﷺ أتاه مَلكان، فشَقَّا صدرَه، واستخرجا قلبَه، فشَقَّاه، واستخْرَجَا منه عَلَقَةً سوداءَ، وقالا: هذا حَظُ الشيطان منك. ثُمَّ ملآه حكمةً وإيمانًا.

ثم لأمَاهُ فالتَأم الشَّقُ بإذن الله - تعالى - ثُمَّ ختماه بخَاتم النبوة بين كتفيه كالطَّابع.

ثُمَّ قال أحدُهما لصاحبه: زِنْهُ بعشرة من أُمَّته. ففعل فَوَزَنَهم.

ثمَّ قال: زِنْهُ بألفٍ من أُمَّته، ففعل فَوَزَنَهم، حتى قال: دعوة، والله لوْ وَزَنْتَه بأُمَّته كلها لوزنهم.

ثمَّ قبَّل رأسّه وما بين عينيه، وقالاً: يا حبيب الله، لم تُرَعْ، إنك لو تدرى ما يُراد بك من الخير لقرَّت عيناك.

---

(١) جَفْراً: أى شديداً ممتلئ الجنبين.

قال ابن إسحاق: فتخَوَّفَت عليه حليمةُ بعد ذلك

قالت: فاحتملناه، فقدمنا به على أُمِّه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئرُ[1] وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟!

قالت: فقلت: قد بلغ الله بابنى، وقضيت الذى علىَّ، وتَخَوَّفْتُ الأحداث عليه، فأدَّيته إليك كما تُحبين.

قالت: ما هذا شأنك، فاصدقينى خَبَرك.

قالت: فلم تدعنى حتى أخبرتها

قالت: افَتَخَوَّفْت عليه الشيطان؟

قالت: قُلتُ: نعم.

قالت: كلاَّ والله، ما للشيطان عليه من سبيل، وإنَّ لبنى لشانًا، أفلا أخبرك خبرَه؟

قالت: قلتُ بلى.

قالت: رأيت حين حملتُ به أنَّه خَرَجَ منِّى نورٌ أضاءَ لى قصور بُصْرَى من أرض الشام.

*****

ذاك ما كان من حفظ الله لرسوله ﷺ نقرؤه في آيات تتلى ووقائع تُذكر ﴿**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ إنَّه حِفْظُ الله لليتيم الذى اختاره رسولاً للعالمين.

---

(١) الظِئر: العاطفةُ على ولد غيرها المرضِعةُ له.

obeikandl.com

حَفِظَهُ في نسبه، وحَفِظَهُ في ولادته ونشأته، وحَفِظَه في رعايته وبعثته، وحَفِظَه في هجرته وأداء رسالته.. حَفِظَه في حياته كُلِّها..

وفى مماته حَفِظَ رسالَته وسيرتَه وكُلَّ شئ من أمره.

كُلُّ ذلك يجعلنا نستحضر قول ربِّه ﴿**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ في كُلِّ شأن من شئونه، فلا تغيب عنَّا هذه الدلالة في جميع أمره من دنياه أو آخرته.

قال الله تعالى: ﴿**وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ**﴾[1].

فى هذه السورة – مع إبطال ما زعمه المشركون من انقطاع الوحى عنه – فيها بشارةٌ بأن الآخرة خيرٌ له من الأولى، تبشيراً له بالخيرات الأبديه ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ**﴾.

وهى تفيد أن حالاته ﷺ تجرى على الانتقال من حالته إلى أحسن منها.

واللام في قوله (لك) لام الاختصاص: أى خيرٌ مُخْتَصٌّ بك، وهو شامل لكُلِّ ما له تعلُّق بنفس النبى ﷺ في ذاته وفى دينه وفى أُمّته.

فهذا وعدٌ من الله بأنْ ينشر دين الإسلام، وأن يُمَكِّنَ أُمّته من الخيرات التى يأملها النبى ﷺ.

﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾ حذف المفعول الثانى لـ ﴿**يُعْطِيكَ**﴾ ليَعُمَّ كُلَّ ما يرجوه ﷺ من خير لنفسه ولأُمَّته، فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء، كما أفادت الجملة قبلها جميع الأزمنة.

---

(١) الضحى: ١ – ٨.

ثم ذكَّره الله بما حَفَّهُ به من ألطافه وعنايته، في صباه وفى فُتُوَّته، وفى وقت اكتهاله، وأمَرَه بالشُكر على تلك النِّعم بما يناسبها من نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾(١).

*****

(١) الضحى: ١١.

obeikandl.com